الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٥ —

في ميدان السياسة :

نفض ملتن يديه من الخصومات ، ولبث يترقب أنباء الحرب ، وإن الحنين إلى الشعر ليزداد في نفسه يوماً عن يوم ، حتى ليكاد يجزم أنه عائد إليه عما قريب وجاعل همه كله إليه ، كما كان أمره قبل أن ينصرف عنه سنة ١٦٤١ إلى الحرب التي أوقد نارها على القساوسة معتقداً أنها كانت مما يقضي به عليه الواجب نحو وطنه في ذلك الوقت .

ولكن حديث السياسة يشغل باله ويستأثر بفكره أحياناً على الرغم من حنينه إلى الشعر ، حتى ليحسب أصحابها أنها هي اليوم كل همه ، ولذلك يحارون في أمره : أكان إلى الشعر يومئذ أم كان إلى السياسة ميله ؟ ولقد نظم مقطوعة سنة ١٦٤٨ يمجد بها القائد الظافر فيرفاكس ، ومنها يتبين القارئ شدة اهتمامه في ذلك الوقت بالسياسة والحرب ، وقوة تحمسه لقضية البرلمان . قال ملتن . « أي فيرفاكس[1] ، يا من يجلجل اسمك كجندي في أنحاء أوربا جميعاً ، فيملأ كل فم بالحمد أو بالثناء عليك ، ويملأ الملوك الحاقدين جميعاً عجباً منك ، ويرسل الشائعات المدوية فتخيف أقصى الملوك موطناً . إن بسالتك الوطيدة التي لا تتزعزع لن تزال تأتي لوطنك بالنصر ، ولو أن ثائرين جددا يرفعون رؤوسهم الشبيهة برأس الهيدرا[2] ، والشمال الخؤون[3] يعلن ما نقض من عهد نيرنس أجنحتهم الخائنة ، وإن عملا أجل مما فعلت لا يزال يرجى على يديك حتى يتحرر الصدق والحق من ربقة العنف ، ويتخلص الإيمان العام بالعدالة مما اتسمت به الحياة من سمة مخجلة هي التدليس العام[1] ، إلا أن الحمية لتنزف الدم عبثاً ، بينما نرى الجشع والسطو يقتسمان الأرض »

الحق أنه لم يكن للتن مندوحة عن السياسة وأنبائها ، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يتجنبها ما استطاع ، ومهما يكن من شدة حنينه إلى الشعر وعظم رغبته في أن يعود إليه ، وقد حبس نفسه عليه سنين من عمره ، وتوفر على دراسة وسائله وأسباب النبوغ فيه ، فما كان بقادر على أن يعتزل قضية الحرية ، وهو نصيرها في كل وجه من وجوهها ، وإنه وقد استطاع أن ينتزع نفسه من الشعر انتزاعاً سنة ١٦٤١ ليوقد نار الحرب على القساوسة دفاعاً عن الحرية ليجد اليوم من اليسير عليه أن يرجئ العودة إليه ، ولو إلى أجل قريب لينظر ما ذا تكون عاقبة ذلك الصراع العظيم بين الملك والبرلمان ، أو بين سلطة الفرد وسلطة الشعب .

وكان ذلك الصراع العنيف بين الملك والبرلمان صفحة مجيدة في تاريخ الحرية ، أو فصلا رائعاً من تاريخ الإنسانية في تمردها على الأغلال وأنفتها من الاستعباد ، أو على حد تعبير مكولى في قوله : « لقد عاش ملتن في عصر من أبقى العصور ذكراً في تاريخ البشر ، حيث كانت ساعة الفصل في ذلك النزال العظيم بين هورومازدو أهريمان[2] بين الحرية والطغيان ، بين العقل والهوى ، ولم تكن هذه المعركة العظيمة من أجل جيل واحد ولا من أجل وطن واحد ، وإنما ارتبطت مصاير الجنس البشري كله بما يكون من مصير الحرية لدى الشعب الإنجليزي ، فها هنا أعلنت لأول مرة تلك المبادئ الغلابة التي اتخذت منذ ذلك الحين سبيلها إلى أعماق الغابات الأمريكية ، والتي أثارت ثائرة اليونان على ما ضرب عليهم ألفي سنة من الذلة والتدهور ، والتي أوقدت في قلوب الشعوب المظلومة في أوربا من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ناراً لا تنطفئ جذوتها ، وأرهقت مفاصل الطاغين

(١) فيرفاكس ، أحد مشاهير قواد البرلمان أثبت بطولة في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ وحاز انتصاراً باهراً على الملكيين سنة ١٦٤٨

(٢) التذكير الحرافي ذي الرؤوس السبعة التي كلما قطع منها رأس نبت رأس

(٣) يقصد الاسكتلنديين الذين نقضوا ما عاهدوا عليه البرلمان سنة ١٦٤٣ أن يكونوا نصراء له على شارل

(١) أتهم المستغلون البرسبتيريز بالرشوة وفساد الحكم .

(٢) إلهي النور والظلمة في الديانة الفارسية القديمة كما جاءها زرادشت

بما لا قبل لهم به من خوف » .

ونحسب بل نكاد فى الحق نجزم أنه لولا ما كان فيه ملتن من شغل شاغل بمحاربة القساوسة ، ثم بما منى به من خيبة فى زواجه ، وماجره ذلك عليه من خلاف شديد بينه وبين البرسبتيريز وحرب منه أدارها عليهم ، ما كان ليذر قضية البرلمان بضع سنين بغير دفاع منه فى كتيبات كتلك التى نشرها منذ سنة ١٦٤١ ، فإن رجلا له مثل روحه الحرة الوثابة ، ومثل ثقافته الواسعة الممتازة ، لخليق بأن يناضل بقلمه فى تلك المعركة الدائرة فى سبيل الحرية ، وجدير ألا يكون نضاله بالقلم أقل بأساً من نضال الشاهرين سيوفهم الباذلين فى سبيل النصر أرواحهم .

ونعتقد أن يأسه من الإصلاح وحنقه على بنى قومه لعزوفهم عما دعاهم إليه لم يكن كما حسب بعض الناس ليميل به عن السياسة يائساً منها كما يئس من غيرها ، بل لقد كانت المعركة الدائرة هى أمله الباقى الذى ينبثق نوره فيما يكتنفه من الظلمات ، ولذلك علق عليها من الرجاء مثلما يعلقه الغريق على آخر أمل له فى النجاة !

ولملتن اهتمام بالسياسة من جهة أخرى ، فهو خصيم البرسبتيريز ، ويود لو يذهب سلطانهم . وهو منذ حملتهم عليه أقرب إلى المستقلين مذهباً ، بل وأكثر منهم استقلالا ، ولذلك فهو يتمنى نجاحهم ويتجه بقلبه إلى كرمول وجنوده ، ويتضح موقفه من الفريقين فى مقطوعتيه اللتين نددت فى أولاهما بالبرسبتيريز مستكرهى الضمائر سنة ١٦٤٦ ، وامتدح فى الثانية غيرفاكس أحد قواد جيش البرلمان سنة ١٦٤٨ .

هكذا لبث ملتن يترقب ويجعل للسياسة همه ، فلما تأكدت قوة كرمول والمستقلين بعد الحرب الأهلية الثانية ، تبين أن الثورة توشك أن تصل إلى نهاية حاسمة ، ورأى ملتن أن الملك وقد ظل على شديد استمساكه بالأسقفية ، وأخذ يفاوض البرسبتيريز والاسكتلنديين ، إنما يتضح أمره يوماً عن يوم أنه العقبة الكؤود فى سبيل التسوية ، فلما أراد زعماء المستقلين أن يخطوا الخطوة التى يقضى بها الموقف ، وهى طرد البرسبتيريز من البرلمان ومحاكمة الملك ، تبين ملتن أن الله استجاب دعاءه ، وأن مصير وطنه ومصيره بسبيل أن يتقررا ، وعاودته حماسته إلى الكتابة ، ومن ثم شرع قلمه .

وأخذ ملتن يعد كتيباً جديداً ، وقد بداه قبل أن تبدأ محاكمة الملك ، وفرغ منه قبل إعدامه بأيام ، فكان صوته أول صوت ارتفع ، والناس عالقة أنفاسهم دهشة ورهباً ، ونشره فى يناير سنة ١٦٤٩ وجعل عنوانه « حق الملوك والحكام » .

وقد ذاع اسمه فى أوربا بهذا الكتيب الذى برر فيه إعدام الملك ، حتى إن زائرى انجلترة يومئذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجلين أحدهما أليفر كرمول رجل السيف ، والثانى جون ملتن رجل القلم . وشاءت الظروف أن يشتهر اسم صاحب الفردوس المفقود أول ما اشتهر فى القارة بصلته بحادث إعدام الملك وجرأته فى الدفاع عن هذا الفعل قبل أن يشتهر بالشعر ، فلم يك قد بدأ قصيدته الكبرى بعد ، أما شعره الذى نشره قبل ذلك ، فلم يقدره حق قدره فى انجلترة إلا خاصة المثقفين ، ولم يعرفه فى القارة إلا قليلون .

ويعد هذا الكتيب من أكثر كتيبات ملتن متعة وأعظمها شأناً ، فقد بسط فيه طائفة من المبادئ العامة فيما يتصل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبعض هذه المبادئ قديم يرجع عهده إلى أول عهد المفكرين من الإغريق بالآراء الديمقراطية ، ولكن ملتن يعرضها عرضاً جديداً ، بينا يمينه على حسن بيانه إياها سعة ثقافته ، وبعضها يظهر فيه ابتكاره أكثر مما يظهر اعتماده على ما خلف غيره من المفكرين .

والكتيب فى جملته عليه طابع ملتن فى سمو بلاغته وشدة حميته وروعة أدائه ، وهو فى روحه العامة صيحة على الطغاة ، وتنديداً بالمستبدين ملوكا وحكاماً ورجال دين ، وقد افتتحه ملتن بتبرير ما فعل الجيش جميعاً ، وعد ما لحق الملك جزاء عادلا من الله على ما قدمت يداه ، وجعل جانباً كبيراً منه لتأييد حق الناس فى اختيار حكامهم وعزلهم ، واختتمه بحملة نكراء على البرسبتيريز والقساوسة إلا من كره منهم الاستبداد وحاد عن سبيله .

وكانت الفكرة التى بنى عليها ملتن تبريره إعدام الملك ، هى

أن الدولة إن هي إلا أداة لخير الناس وأمنهم ، ولذلك فإن إعدام الملك يتمشى مع القانون القائل : « بأن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى سلامة المجموع إنما يعد عملا قانونياً مشروعاً » .

ويتكىء ملتن على العقل والمنطق في الدفاع عن آرائه كما فعل في كتيباته عن الطلاق ، فأساس العلاقة بين الملك وشعبه الوئام والرضى ، فإذا فقد ذلك فقد بطلت شروط تلك العلاقة ، ومن ثم فلا علاقة بينهما ، وللناس من الخروج عن طاعة حاكم يعمل لصالحه دونهم ، « لأن سلطته في الواقع مستمدة من الشعب وفق قانون ، وعن قسم أداه ليؤدي بها حق الشعب في الإصلاح والخير لا لأي شيء خلاف ذلك »

ويقول ملتن إن الإنسان حر بطبيعته ، وأن الرجل العادل لا حاجة به إلى القانون ، فهو يسير على نهج من طبعه ، وما جعل الحكومة أمراً ضرورياً إلا فساد الإنسان ، والحكومة مصدرها الناس الذين وضعوا السلطة في أيدي الملوك أو الحكام على أساس شروط معينة ... ويعرف ملتن الطاغية بناء على ذلك بأنه الرجل الذي يعتقد أن السلطة سلطته هو ، وأنها ما خلقت إلا لنفعه وخيره ... !

ويعتقد ملتن أن مرد الفساد والشر في السياسة كما في غيرها إنما هو إلى سيطرة العاطفة على العقل ، وعلى ذلك فمصدر الشر في الملك عاطفة ، وعواطف الشر في نفسه يوسوس بها الشيطان الذي هو أصل كل عاطفة شريرة ، وإن الواجب ليقضي بمقاومة مثل هذا الملك الذي تتغلب في نفسه العاطفة على العقل !

ويضع ملتن القساوسة في موضع الشيطان ، فإنهم في رأيه أشد أعوان الملك على الطغيان ، وأكبر سند له فيما يتمادى فيه من غي وظلم ، ولا يعنى بالقساوسة الكاثوليك منهم فحسب ، وإنما يعنى كل محب لنفسه شره تحركه الأطماع الدنيا ، قيدين للطغيان ، ويتخذ من الطاغية نصيراً ، ويدافع عنه حتى ليكون حياله كعبدة الأصنام . ويعود فيوجه ملتن سهامه إلى البرسبتيريز ويلقي على كواهلهم تبعة ما لاقته المملكة من شر على يد شارل ، وينكر عليهم انتماءهم إلى الدين بأي وجه ، أو صلتهم بالمسيح إلا ما يكون من مظهر لهم جرى به العرف ، وهم فيما عدا ذلك ذئاب جائعة لا تشبع بطونهم مهما كان مبلغهم من الثروة ، وكلما وصلت إلى الثراء العريض أيديهم الآثمة على حساب الفقراء والمساكين قالوا هل من مزيد ، ولا وازع لهم من دين ولا من ضمير !

وكان حرياً أن يثير هذا الكتيب اهتمام القائمين على أمر الدولة ، وأن يسرهم هذا الدفاع عنهم وقد جاء في إبانه ، ورأوا أن رجلا كمؤلفه علماً واسع الثقافة شجاعاً لا يخاف في الحق شيئاً ، فصيحاً لا يعيى لسانه بأمر مهما عظم ، هو خليق بأن يعول عليه كدعامة من دعائم الحكم الجديد ، ولذلك لم يلبث ملتن أن قلد وظيفة ذات خطر ، فقد جعل قيما على ديوان الرسائل الأجنبية في مجلس الدولة ... والواقع أن هذه الوظيفة لم تكن إلا ستاراً ، فقد كان ملتن رجل القلم والفكر ، المدافع عن الجمهورية الوليدة ، وظل في منصبه هذا يدافع عن الدولة ويرد على كل ناقد أو متهجم ، ويكتب ما يوحي به كرمول مما يريد أن يلقيه على انجلترة وعلى أوربا من ضروب القول وأوجه الرأي .

ويتساءل المؤرخون عما دفعه إلى قبول ذلك المنصب ، أكان ذلك رغبة منه في مظاهرة هذه الحكومة ومناصرتها لما توسم فيها من نصرة الحرية ، أم كان لحاجة إلى المال ، أم كان عن رغبة منه في مراسلة ذوي المكانة من الأجانب ، أم أن كبرياءه وذهابه بنفسه وإحساسه بما قدره لشخصه من سمو المنزلة ، جعله يطيب نفساً بمثوبة الحكومة إياه ، إذ يحس في عملها هذا نوعاً من الاعتراف بقدره وخطره ؟

ومهما يكن من أمر منصبه الذي ارتضاه ، فما أبعده عن ذلك الخيال الجميل الذي مني نفسه به قبل ذلك بثمانية أعوام حين تنبأ بفجر بهيج يوشك أن يهل على انجلترة نوره ، وبشر بشاعره إذ قال : « ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف يتغنى من بين هؤلاء القديسين الذين يناضلون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ، ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية ، وقد تخلصت من القساوسة وعجدت شاعرها المختار » !

وها هو ذا الفجر قد أهل نوره ... فأين طائره الصداح ؟ أين الشاعر وأين لحنه العلوي ؟ كيف ارتضى لنفسه أن يكون

عمله أن يكتب الرسائل اللاتينية ، وأن ينقل ما يرد منها إلى الإنجليزية ، وأن يرد على الشاتمين والحاقدين على الدولة فيعود إلى عنت الخصومة وشغب الخلاف ...

أجل ، كيف آثر الشاعر على الخيلة قاعة الحكومة ؟

ذلك ما لا يسعنا إلا أن نحس حياله من العجب قدراً كبيراً

وكان ملتن يحس كما أسلفنا تضاؤل بصره ، ويشعر أن عليه إزاء ذلك أن يقصد كل القصد فى استعمال ناظريه ، وكان ذلك وحده كافياً فيما نرى لأن يرفض هذا المنصب الذى يتطلب طول النظر فى الرسائل ما يكتب منها وما يترجم ، وفى غيرها من الأوراق التى تحتاج فيها الحكومة إلى معونته ورأيه .

ولكنه كما رأينا قبل المنصب ، ويرى بعض المؤرخين أن قبوله إياه على شدة حنينه إلى الشعر وكثرة ما يهجس فى نفسه منه ، وحاجة ناظريه إلى الراحة ، هو ضرب جديد من التضحية أشبه بتضحيته الأولى حين هجر الشعر على رغمه سنة ١٦٤١ استجابة منه لداعى الحرية ، فقد كان يعتقد ملتن أن مساهمته ولو بقدر صغير فى بناء صرح الحكومة الجديد عمل ينطوى على معنى الوطنية ، وبخاصة أنه كان يؤمن يومئذ أن الحكومة الجديدة وقد جاءت نتيجة لذهاب الطغيان لا بد أن تظل نصيرة للحرية ، ولقد أشار إلى هذا المعنى بعد ذلك بقليل فى أحد كتيباته قائلا : إنه تقدم عن طيب خاطر ليخدم بلاده ، حينما طلب إليه ذلك القائمون على الأمر ، وأنه لم يطلب على ذلك أجراً ، وحسبه من الأجر ارتياح ضميره ورضاؤه عن نفسه ، والحق أن المال لم يكن له دخل فى قبوله ذلك المنصب ، فإنه وإن كان ملتن فقيراً ، فقد كان القليل من المال حسبه لما تتطلبه أكلاف عيشه وهى يومئذ قليلة ، وكان لا يعوزه هذا المال القليل .

ونعتقد أن ملتن على حق فيما يعتل به من علة ، وليس يمنع هذا من أن نضيف إليها علة أخرى لها كما لهذه فى طبعه من الشواهد ما يكاد يؤكدها ، وتلك هى رغبته التى لازمته منذ صغره فى أن يكون عالى القدر ممتاز المكانة ، واختياره لهذا المنصب يحقق له تلك الرغبة ، فضلا عما فيه من معنى الاعتراف له بالفضل وعلو المكانة فى مجال الأدب والمعرفة ، وكانت تطرب نفس كنفسه بلا ريب لأن يكون ذا صلة بتلك الشخصيات الكبيرة التى قضت بجهادها المرير على الاستبداد الذى يمقته أشد المقت ، لا عن ملق أو افتتان بذوى الجاه والمكانة كما يفعل صغار النفوس ، ولكن عن طموح وكبرياء ورغبة فى السمو ، وعن محبة وإعجاب بتلك الشخصيات لما تنطوى عليه محبته إياهم من معان ، كما يفعل الأباة من أولى الفضل ...

وثمة رأى آخر يضاف إلى تلك الآراء ، وهو رأى « ماركس پاتيسون » أحد من أجادوا الكتابة عن ملتن ، ومؤداه أنه لا يبعد أن يكون ملتن قد رأى فى المنصب مجالا جديداً للازدياد من المعرفة والحكمة ، وهى مما يتطلبه الشعر من زاد ، فقد طالما رأيناه من قبل يعد بأن يتوفر على الشعر متى استكمل منه عدته ، وتم له ما يتوق إليه من نضج وخبرة بالحياة ، وعلى ذلك فلن تذهب تضحية بوقته وبصره هباء ، فلسوف تجدى عليه وثيق المعرفة بأحوال الناس وأمور الحياة !

(يتبع) الخفيف

إدارة الرحلة الفروية بالمنوفية

تقبل العطاءات لغاية ظهر خمسة أكتوبر سنة ١٩٤٦ عن إنشاء عمليات مياه وحمامات ومغاسل موزعة كالآتى

المجموعة الأولى بناحيتى ميت سراج والمجايزة .

المجموعة الثانية بناحيتى مليج والماى .

ثالثاً حمامات ومغاسل فقط ببندر منوف وكلها فى عقد واحد ثمنه جنيهان مخلاف مائة مليم يريد ويطلب على ورقة دمغة ويجوز للمقاولين التقدم فى العمليات الثلاث أو فى إحداها . ٥٩٤٥